آراء النقاد المعاصرين في قضايا الجاحظ وابن قتيبة النقدية وتفنيدها

محمد عبد الله محمد 1
mahamatabdallahmahamat@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد؛

فهذه دراسة موجزة لحركة النقد الأدبي في القرن الثالث الهجري، ممثلة في خيرة رجات النقد وهما عمرو بن بحر الجاحظ، وابن قتيبة، وقد كانت لهما آراء نقدية ثرة أشغلت من بعدهم ممن تقفوا أثرهم، بين مؤيد ومعارض لتلك الآراء، وممن خاض في تلك الآراء النقاد المعاصرون، حاولوا مجتهدين في دراسة تلك القضايا والإدلاء بدلائهم تأييدا ومعارضة، أعملت فكري ونظرت إلى هذه المسائل النقدية في جذورها، كما اطلعت على قيل فيها من بعد، وأحسب أنني جمعت المتفرق ،وزيلت لكل رأي دليله الذي اعتمد عليه، ولن أتجرأ بالقول في تخطئة هذه الأساطين العلمية السامقة، بقدر ما أفسحت للمطلع أينظر برواء وتؤدة، ويأخذ ما ترجح له.

قسمت المقال إلى فصلين، وتحت كل فصل مباحث؛

الفصل الأول: أراء المعاصرين في قضايا الجاحظ النقدية وتفنيدها

المبحث الأول : أراء المؤيدين لقضايا الجاحظ النقدية وتفنيدها

المبحث الثاني: أراء المعارضين لقضايا الجاحظ وتفنيدها

المبحث الثالث: الموازنة بين الرأيين بين آراء المعاصرين في قضايا الجاحظ

1- باحث دكتوراه- قسم الآداب واللغات - مدرسة الدكتوراه- جامعة أنجمينا- جمهورية تشاد

الفصل الثاني: أراء المعاصرين في قضايا ابن قتيبة النقدية وتفنيدها

المبحث الأول : أراء المؤيدين لقضايا ابن قتيبة النقدية وتفنيدها

المبحث الثاني: أراء المعارضين لقضايا ابن قتيبة وتفنيدها

المبحث الثالث: الموازنة بين الرأيين بين آراء المعاصرين في قضايا ابن قتيبة

الفصل الأول: أراء المعاصرين في قضايا الجاحظ النقدية وتفنيدها

لقد عني النقاد المعاصرون بالقضايا الأدبية التي وقف عندها المتقدمون بل ربما زادوا في بعضها ،فمن القضايا **(قضية القديم والجديد، وقضية اللفظ والمعنى أو الشكل والمضمون، وقضية الطبع والصنعة، وقضية السرقات الشعرية)** " فهذه قضايا أثارت جدلا بين العلماء قديماً وحديثاً ،حتى أنهم انقسموا إلى فرق مختلفة.

ففي **قضية القديم والجديد** مثلا؛ يعد الجاحظ من أولئك العلماء القلائل الذين وهبوا نعمة الإنصاف والاتزان حين **يقول:** والقضية التي لا أحتشم منها ،ولا أهاب الخصومة فيها، أن عامة العرب والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب أشعر من عامة شعراء الأمصار والقرى النائية، وليس ذلك بواجب لهم في كل ما قالوه، وقد رأيت ناسا منهم يبهرجون أشعار المولدين، ويستسقطون من رواها.

ولم أر قط ذلك إلا في راوية للشعر غير بصير بجوهر ما يروي، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد ممن كان ، وفي أي زمان كان.[1]

أما **قضية اللفظ والمعنى** عند الجاحظ فهي كما ينقلها محمد عبد الغني المصري: أن الناس فرقا منهم من يحب الزخرفة والتزيين في كل شؤونه الخاصة والعامة ، فهذا النمط من الناس يفضل الزخرفة اللفظية ويقدم اللفظ على المعنى ويدعو إلى العناية به، لأنه يرى في الأدب صورة لأناقته الشخصية.

[1] – الحيوان ، الجاحظ، ج3، 130

بينما فريق آخر يكره الزخرفة المصطنعة ويعدها غشا، فهم يؤثرون المعنى على اللفظ ، ويهتم بالوصول إلى الفكرة والمعنى، ولا يعلق اهتمامه على زخرفة اللفظ أو سلاسة العبارة أو جمال السبك، فتهمه الفكرة واستيعابها.

وتوسط آخرون وهم قلة يستطيعون على جموح عواطفهم وإعطاء التوازن المطلوب بين عقلهم وعاطفتهم وهؤلاء المنصفون الصفوة من الأدباء والنقاد.[1]

يعد محمد المصري، **الجاحظ** واحدا منهم ، بينما لا يراه آخرون كذلك كما سأبين في التفصيل.

فالجاحظ من أوائل أدباء العرب الذين بحثوا في قضية اللفظ والمعنى من زوايا متعددة وجوانب مختلفة.

فهو يرى أن أحسن الكلام ما كان معناه في ظاهر لفظه، وأن ذلك لا يتم في رأيه إلا عن طريق المزاوجة بين المعنى الشريف واللفظ البليغ.[2]

يقول(وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه...فإذا كان المعنى شريفا واللفظ بليغا ،وكان صحيح الطبع، بعيد الاستكراه، ومنزها عن الاختلال مصونا عن التكلف، صنع في القلوب صنيع الغيث في التربة الكريمة)[3] بينما نراه في موقف آخر يصرح قائلا (وذهب الشيخ أبو عمرو الشيباني إلى استحسان المعنى، والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي والمدني، وإنما

---

[1] محمد عبد الغني، نظرية الجاحظ في النقد الأدبي، مرجع سبق ذكره، ص81-82

[2] القضايا النقدية بين الجاحظ وابن قتيبة ، رسالة دكتوراه، محمد عبدالله محمد فضل الله، جامعة أم درمان الإسلامية، 2006م ص21

[3] – البيان والتبيين ، الجاحظ، ج1، ص83

الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير)[1]

وعن **قضية الطبع والصنعة** يتحدث الجاحظ قائلا: وكل شيء للعرب إنما بديهة وارتجال وكأنه إلهام وليست هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا إجالة فكر، ولا استعانة وإنما هو أن يصرف همه إلى الكلام ، وإلى رجز يوم الخصام... فما هو إلا أن يصرف همه إلى جملة المذهب ، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالا، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا، ثم لا يقيده على نفسه، ولا يدرسه أحد من ولده، وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر.[2]

وعن **قضية السرقات الشعرية** التي يسميها **بـ:** أخذ العشراء بعضهم معاني بعض.

ويقرر أنها لا تكون في مطلق معنى، وإنما تكون في المعنى الغريب العجيب، أو في المعنى الشريف الكريم، أو في المعنى البديع المخترع، وقد يكون من معاصر له أو متقدم عليه[3]. حيث يفصل الجاحظ في ذلك كالتالي:

(ولا يعلم في الأرض شاعر تقدم في تشبيه مصيب تام ، وفي معنى عجيب غريب، أو في معنى شريف كريم، أو في بديع مخترع، إلا وكل من جاء من بعده أو معه، إن هو لم يعد على لفظه فيسرق بعضه أو يدعيه بأسره، ويجعل نفسه شريكا فيه، كالمعنى

---

[1] الحيوان، الجاحظ، دار الجيل، شرح وتحقيق : عبد السلام هارون، 1988م، ج3، ص131

[2] – البيان والتبيين ، الجاحظ ، ج3، ص 26–27

[3] -د/ عبد العزيز عتيق، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار النهضة العربية، بيروت، ط3، 1973م ص333

تتنازعه الشعراء فتختلف ألفاظهم وأعاريض أشعارهم، ولا يكون أحد منهم أحق بذلك المعنى من صاحبه)[1]

المبحث الأول :. أراء المؤيدين لقضايا الجاحظ النقدية وتفنيدها

من المحدثين الذين تناولوا قضايا الجاحظ **طه حسين**، حيث تناول قضية **الصراع بين الجديد والقديم** أي المحدثين والقدماء من الشعراء وأيهم أفضل .

إنه يعترف بأن الصراع بين الجديد والقديم أصل من أصول الحياة يشتد ويعنف ويصبح دموياً حيث يكون صراع، أما في الفكر الأدبي فهو صراع على حدته فإنه يتم في صورة سلمية ويخضع للبحث والتحليل وقد يختلف شكل هذا الصراع بين أمة وأمة كما كان مختلفاً بين الأمة اليونانية والأمة العربية ، فلم يختصر الاختلاف عند اليونانيين على الألفاظ والمعاني وحدها وإنما تجاوزها إلى النوع.[2]

ويضيف الدكتور / محمد أحمد العزب: عن موقف أبي عثمان من القديم والمحدث، الذي بدا مركزا بشكل أساسي على القيمة الفنية وحدها رافضا أن يعطي براءة التفوق للقديم على الحديث لمجرد قدمه ولا للحديث على القديم لمجرد حداثته، وإنما هو معني بتأمل محض الجمال في الفن ، ومهما يكن من شيء فقد رفض الجاحظ أن يرفع القديم على الحديث لمجرد أن هذا قديم وهذا محدث، وأن هذا أعرابي وهذا مولد...إن نظر

[1]– الجاحظ؟

[2]– د/يوسف نور عوض، الرؤية الحضارية والنقدية في أدب طه حسين، مكتبة ، الأنجلو المصرية، 1997،ص170

الجاحظ مسلط هنا على القيمة الفنية وحدها ، وليس على الإطار الزماني الحاضن لهذه القيمة قديما كان أو حديثا.[1]

وهذا الدكتور محمد عبد الغني المصري بعد أن يذكر قول الجاحظ حول تعريف الشعر (إنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع، وجودة السبك) يقول: فلو حاولنا أن نحلل هذا التعريف الهام والشامل للشعر لعرفنا بعض حدود نظريته النقدية... والواقع أن الجاحظ يتمتع بحس لغوي صاف رقيق.

ثم أورد لذلك نموذجا ينطبق فيه أحكامه وهو قول زهير :-

والإثم من شر ما تصول به والبر كالغيث نبته أمِرُ

أي ؛ كثير. قال : ولو شاء أن يقول: والبر كالماء نبته أمِرُ؛ استقام الشعر، ولكن كان لا يكون له معنى .

وإنما أراد أن النبات يكون على الغيث أجود.[2]

وبعدها يدخل في **مسألة اللفظ والمعني** عند العرب في العصر العباسي " فقد أدى الاختلاف حول اللفظ إلى ظهور تيار جديد في الشعر العباسي تمثل في مسلم بن الوليد وأبي تمام والمتنبئ وغيرهم من أصحاب البديع وأسفر الاختلاف حول المعني عن تيار آخر تزعمه أبو نواس والبحتري والشعراء الذين فتنوا بجزالة الألفاظ القديمة وأثروا

---

[1]– د/ يوسف غيوة، مقال منشور. مجلة اليوم الالكترونية، قراءة في النص النقدي وأشكاله المختلفة عند الجاحظ، الاثنين 2002/7/22م

[2] محمد عبد الغني المصري، نظرية الجاحظ في النقد الأدبي، دار مجد لاوي ، عمان . الأردن، ط1، 1987

وضع المعاني فيها غير أن ذلك لم يؤثر في طبيعة الشعر العربي أو في ثورته أو في نوعه فالقصيدة العربية ظلت كما في أسلوب بنائها أو أغراضها وأن تجددت موضوعاتها.[1]

يقول الدكتور عبد العظيم إبراهيم : أما المعني فيطلبون فيه أن يكون شريفاً ، وشرف المعني يقصد الشاعر فيه إلى الإغراب واختيار الصفات المثلي ، إذا وصف أو مدح لا يبالى بالواقع . فإذا وصف فرساً وجب أن يكون الفرس كريماً. وإذا تغزل ذكر من أحوال محبوبه ما يمدحه ذو الوجه الذي برح به الحب .

وصحة المعني عندهم أن يسلم من الخطأ التاريخي أو العرفي ... وبالاعتبار الأول عابوا قول زهير :

فتنتج لكم غلمان أشام كلهم كأحمر عاد، ثم ترضع فتفطم

وعليه فيطلبون في المعاني الإصابة في الوصف.[2]

ومن المحدثين من أشارإلى المسألة الفرنسية ثيوفيلجونيه، الذي شبه اللفظ بالمعني كشقي المقراض " المقص " كلامها يقطع بالجدة والمضاء نفسه ، وكلامها لا يقطع بدون الأخر .

ويقول الدكتور محمد بركات: ويبدو لي أخيراً عدم الفصل بين اللفظ والمعني والتحدث بأسبقية أحدهما عن الآخر إلاّ على سبيل الدراسة الجزئية الفلسفية لكل منهما ،

[1] د/يوسف نور عوض، المرجع السابق ،ص170

[2] د/عبد الرحيم إبراهيم المطعى /خصائص ،التعبير القرآني وسماته البلاغية، ج1، مكتبة وهبة ،القاهرة، ط1992،1م،ص100-101.

والتعرف إلى خصائصهما وتوضيحهما ، لأنه لا فصل بينهما في الحالة النفسية السلمية للإنسان السوي في أثناء حديثه واستماعه وفهمه[1]..

كذلك يذكر **رأي الأستاذ احمد حسن الزيات** . صاحب مجلة الرسالة . والمقالات الأدبية الناقدة؛ فمن القضايا التي تحدث عنها ؛ قضية اللفظ والمعني ،تراه حين يتحدث عن جمال الأسلوب وعن جمال اللفظ و المعني، يشترط لجمال اللفظ أن يكون " متن ذاته كالموسيقي يخلب الأذن ويلذ الشعور، وإن لم يترجم ، ويشترط لجمال المعني أن يكون كالكهرباء إذا لم يكن لفظه جيد التوصيل انقطع تياره، فات يعرب، ولا يطرب.

والزيات لا يفضل بين اللفظ والمعني في بلاغة الأسلوب، حيث يقول : " أنّ البلاغة التي اعنيها وادفع عنها هي البلاغة التي تحدى بها القرآن أمراء القول في عهد كان الأدب فيه صورة الحب وترجمة الشعور، وعبارة العقل، هي البلاغة التي تفصل بين العقل والذوق، ولا بين الفكرة والكلمة، ولا بين المضمون والشكل، إذ أنّ الكلام كائن حي ، روحه المعني وجسمه اللفظ ، فإذا فصلت بينهما أصبح الروح نفسا لا يتمثل والجسم جماداً لا يحس .

ويصرح الزيات أخيراً برأيه فيقول : "إنّ البلاغة التي نعنيها هي البلاغة التي لا تفصل بين العقل والذوق ، ولا بين الفكرة " المعني " والكلمة " اللفظ " ولا بين الشكل والمضمون .[2]

[1] محمد بركات حمدي أبو علي، دراسات في الأدب ،دار وائل ، عمان ،1999م،ص229

[2]– محمد بركات ،مرجع سبق ذكره، ص246.

ومن **المؤيدين** لقضايا الجاحظ ما نقله الشيخ محمود شاكر عن حسن الشندوبي قوله " نال الجاحظ عناية الكتاب في هذا العهد ما لم ينله أديب أو عالم أخر من علماء العرب وأدبائهم .

ولا غرو فقد قيل:إن الفيلسوف ثابت بن قرة الصابي الحراني قال " ما أحسد الأمة العربية إلاّ على ثلاثة أنفس أولهم عمر بن الخطاب، والثاني الحسن بن الحسن البصري ، وهو من شيوخ المعتزلة ، والثالث أبو عثمان الجاحظ ".[1]

وقد بعد الدارسين المعاصرين . وهم فيما لا حظوه لم يجانبوا الصواب . في أن الجاحظ لم يتخذ موقفاً متجانساً من المشكلة مما افضي به إلى التردد بين طرفيها على نحو تحكمه لمعياريته الفاصلة وتوجهه لتصورات التقديم والتأخير. ومما يدل على أنه زكي اللفظ ؛إصراره على أن الشعر لا يترجم وأنه متى حول تقطع نظمه وبطل وزنه وذهب حسنه .[2]

وقد ذكر محمود شاكر في مقدمة أسرار البلاغة ، قضية اللفظ والمعني بادئاً فيها رأيه " الإنسان يمتاز بالعلم والتعلم باللغة ، واللغات تتفاضل من حقيقتها وجوهرها بالبيان ، وهي تأدية المعاني التي تقوم بالنفس تامة على وجه يكون أقرب إلى القبول وادعى إلى

---

[1]– جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، ج2، مكتبة الخانجي ،القاهرة، ط1، 2003م، ص614.

[2]– د/عاطف جودة نصر، النص الشعري ومشكلات التفسير ،مكتبة لبنان،بيروت ط11996م.ص74.

التأثير ، وفي صورتها وأجراس كلماتها بعذوبة النطق وسهولة اللفظ والإلقاء والخفة على السمع .[1]

ثم يقول منتقداً مذهب الأوائل الذين فرقوا بين اللفظ والمعني ، وكان دليله ما أصاب اللغة من الضعف .

" ظهر ضعف في القرن الخامس ، وكانت في ريعان شبابها وأوج عزها وشرفها ، وكان أول مرض ألم بها الوقوف عند ظواهر قوانين النحو ، ومدلول الألفاظ المفردة، والجمل المرتبة والانصراف عن معاني الأساليب، ومغازي التراكيب ، وعدم الاحتفال بتصريف القول ومناحيه ، وضروب التجوز والكناية فيه".[2]

وقد تعرض لهذه القضية من المحدثين أيضا ، صاحب البلاغة الواضحة ؛ أن صاحبي البلاغة الواضحة قد تمرسا بالأساليب العربية ، وتربى عندهما ذوق أدبي سليم ، فأصبحا يعالجان البلاغة العربية من خلال الأدب العربي ونقده، فنراهم يؤكدان " أنّ البليغ لابد له أولا من التفكير في المعاني التي تجيش بها نفسه ، وهذا يجب أن تكون صادقة ذات قيمة وقوة يظهر فيها أثر الابتكار ، فإذا تم له ذلك عمد إلى الألفاظ الواضحة المؤثرة الملائمة ، فألف بينهما تأليفاً يكسبها جمالاً وأصالة ، فالبلاغة ليست في اللفظ وحده ، وليست في المعنى وحده ، ولكنها أثر لسلامة تأليف هذين وحسن انسجامها".

[1]– عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ، مرجع سبق ، ذكره،ص 9

[2]– عبد القاهر الجرجاني،أسرار البلاغة، مرجع سبق ذكره، ص10.

ويقولان أيضا: عناصر البلاغة إذن لفظ ومعني، وتأليف للألفاظ يمنحها قوة اختيار وتأثيراً وحسناً ثم دقة في اختيار الكلمات والأساليب على حسن مواطن الكلام ومواقعه وموضوعه، وحال السامعين والنزعة النفسية التي تتملكهم وتسيطر على نفوسهم .[1]

موقف الدكتور عبد العزيز عتيق من قضايا الجاحظ .

أشاد الدكتور بالنابغة الجاحظ ومنهجه الدقيق في التطرق على الأساليب البلاغية والنقدية خاصة في كتابه البيان والتبيين ، وكتاب الحيوان ، فنجد عتيق يثني عليه وعلى أرائه وأفكاره " ولا جدال في أن الرجل من خلال هذا العرض يبدو معلماً فذاً وقمة شاهقة في تاريخ البلاغة وتاريخ النقد ، فالمساهمة التي أسهم بها في هذين الميدانين تمثل في الواقع خلاصة معارف سابقيه ومعاصريه ، وهذا بالإضافة إلى الجديد الذي اهتدى إليه هو شخصياً فأثرى به البيان العربي والنقد العربي .

وقد كان للجاحظ تأثير كبير فيما قدم للتراث البلاغي والنقدي وبما بث فيهما من أفكار وآراء ذاتية.[2]

ولقد نال إعجاب العلماء والنقاد قديماً وحديثاً. ومن اعجاب الكتاب المعاصرين بالجاحظ وإجماعهم على الاعتراف بأثره وقيمة أدبه فإن منهم من يحمله مسؤولية الفوضى التي تسود كتب الأدب العربي ، لأن من جاءوا بعده قد نسجوا على منواله وحذوا حذوه .[3]

---

[1]– محمد بركات ،مرجع سبق ذكره، ص248

[2]– د/ عبد العزيز عتيق،تاريخ النقد الأدبي ،مرجع سبق 1كره،ص367

[3]– المرجع السابق،ص368

لقدوضع العقاد أسئلة يطرح من خلالها يعرف من الشاعر ؟ يقول : فليس الشاعر من يزن التفاعيل ، ذلك ناظم أو غير ناثر، وليس بصاحب الكلام الفخم ، واللفظ الجزل، ذلك ليس بشاعر أكثر مما هو كاتب أو خطيب.

ليس الشاعر مَن يأتي بروائع المجازات وبعيد التصورات، ذلك رجل ثاقب الذهن حديد الخيال.

حيث نجده ينفي عن كل ما سبق صفة أنهم شعراء، لكن لنعرف من الشاعر عنده . أي العقاد "إنما الشاعر من يَشعر ويُشعر".

ولقد ضيّع الشعر العربي قوم صرفوه في تجنيس الألفاظ وقوم صرفوه في تذويق المعاني ، فما كان شعراً بالمعني الحقيقي إلاّ في أيام الجاهلية والمخضرمين علي ضيق دائرة المعاني عندهم .

للعقاد نظرة قريبة من نظرة الجاحظ في العمل الأدبي ، الشعر صناعة توليد العواطف بواسطة الكلام ، والشاعر هو كل عارف بأساليب توليدها بهذه الواسطة يستخدم الألفاظ والقوالب والاستعارات التي تبعث توّاً في نفس القارئ ما يقوم بخاطره من الصور الذهنية. والألفاظ نوع من اختزال المعاني تثير إلى ما يمكن وروده منها على اللسان أو هي رموز يقترن كل منها بخواطر وملابسات تتيقظ في الذهن متى طرقه ذلك اللفظ ولا يشترك فيها معه لفظ آخر وإن ترادفا في ظاهر المعنى فالمترادفات لا تتشابه في المدلول تماماً.

فليست المعاني منطوية في أحرف كلماتها ولكنها ترمز إليها ولا مجرد النطق بكلمة يكفي لاستحضار معناها عند كل من يسمعها على السواء،فتختلف الكلمة الواحد في

قوة استحضار المعني باختلاف مدلولاتها وملابساتها عن السامعين والتفطن إلى هذا الفرق الدقيق بين معاني الألفاظ والتلطف في أداء كل منها في موضعه .

والعواطف قد تتأثر بالعبارة المفاجئة أشد من تأثيرها بالعبارة ذات القضايا المترتبة والمعاني الجلية .

أي أن الألفاظ أشد وقعاً علي السمع من حينها قبل البحث عن المراد بها من معاني.

وتراه يتحدث عن الكاتب والشاعر ، أي من هو الكاتب ؟ ومن الشاعر ؟[1]

[1]– العقاد؟

المبحث الثاني:. أراء المعارضين لقضايا الجاحظ وتفنيدها

يقول الإمام مالك،إمام دار الهجرة ،"كل منا يؤخذ من قوله ويرد إلاّ صاحب هذا القبر" [1]ويشير إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم.

وبناء على المقولة التي تقول "رضا الناس غاية لا تدرك" .

ولما ذكرنا آنفا من أن الجاحظ قد تحدث في قضايا نقدية أدبية ،ومن خلال ذلك،وجدت بعض الأدباء والنقاد المعاصرين ،من أشاد بأفكاره ورحب بها ،كما أن لبعضهم أفكارا وآراء تكاد تكون مناقضة لما ذهب إليه الجاحظ .

فمثلا طه حسين،صاحب النظرة الجديدة،يتحدث عن القضايا التي كانت سائدة إبان القرن الثالث الهجري.

فقد ذكر في كتابه حديث الأربعاء يقول "إن القوم لم تكن لهم مذاهب واضحة في النقد ، أو أن مذاهبهم لم يكن من شأنها أن ترضينا،وكلا القولين صحيح، فإنا لانعرف لأدباء القرن الثاني والثالث الهجري مذهبا في النقد معروفا ،أو خطة فيه واضحة "

ثم يقول مواصلا كلامه "ومع ذلك فقد نقدوا وحكموا على الشعر والنثر،فاستحسنوهما وزودوهما ،ولم تكن أحكامهم متفقة ، ولم تكن أهواؤهم متشاكلة، وإنما كانوا يختلفون ويختلفون اختلافا كثيرا ،ولعلنا لا نخطئ إذا قلنا أن لكل فريق من أهل العصر كان يتخذ صناعته وفنه الذي غلب مقياسا لنقده ،ميزانا لرأيه، في جودة الأثر الأدبي أو رداءته "

[1] – مالك بن أنس: مختصر المؤمل في الرد على الأمر الأول الصفحة 66 ، تأليف : أبي شامة المقدسي، تحقيق: صلاح مقبول أحمد، مكتبة الصحوة الإسلامية ، الكويت، 03/ 12/ 1403هـ

ثم ينتقل إلى الجاحظ الذي يعد من أفذاذ القرن الثالث الهجري "والجيد عند الجاحظ وأمثال الجاحظ لا من الكتاب والشعراء ورواة الأدب الذين لم يقصروا حياتهم على اللفظ ،ولم يختلفوا ولم يختصوا بالبحث مادة اللغة ،وإنما وربما تفوقها :ما اشتمل على المعنى الطريف في اللفظ المستعذب ،والذي لم يعن في الغرابة ،ولم يسفل إلى لغة السوقة " [1] وتجد من الكتاب المعاصرين من له نظرة على أسلوب الجاحظ وطرق عرضه للقضايا التي تناولها.

يقول الدكتور /عبد العزيز عتيق: ومنهم من يأخذ عليه كثرة المزاح والمجون الذي يصل أحيانا إلى درجة الفحش ،كما يأخذون عليه عدم القدرة على التركيز والصبر على موضوع واحد ،لأنه كثيرا ما يدخل في موضوع ثم يخرج منه إلى موضوعات أخرى لأدنى مناسبة. [2]

وممن نظر إلى قضايا الجاحظ د/شوقي ضيف الذي كان يرى (أن الجاحظ يقدم اللفظ على المعنى ،وذلك بعد ما ذكر ذلك في معرض حديثه عن موقف الجاحظ من غرابة الألفاظ وحملته على من يشبهون بالدو الجفاة في استخدام الآبد الوحشي ،وأكثر من الحديث عن حسن الصوغ وكمال التركيب ودقة تأليف اللفظ وجمال نظمه ،وأداه شغفه بجودة اللفظ وحسنه وبهائه إلى أن قدمه على المعنى).

[1] كتاب الأربعاء، طه حسين

[2]– تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د/ عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، 1980م، ص324 وما بعدها.

يذكر الدكتور شوقي ضيف/في كتابه :في التراث والشعر واللغة ؛كثيرا من آراء المعارضين للمفهوم الذي صار عليه القدامى ، فمثلا؛قد فضل النقاد شعر القدماء لكونه شعر غير متكلف يجري على السليقة ،وأن أشعار المولدين والمحدثين مفتعل.

فيورد شوقي ،بعض أقوال خصوم التراث الأدبي الموروث فمثلا قولهم "إن إيقاع الشعر الموروث تحف سلاسل الروي وإغلال القوافي ،مما يجعل النظم فيه عسيرا شديد العسر "[1]

فهم بذلك ينادون بالتحرر من قيود القافية والأوزان، بل وينادون بـ"دعونا من الشعر التقليدي وموسيقاه المعقد ،بل أسدلوا عليه الستار نهائيا، فقد انتهى دوره وانتهت أيامه ،وانتهى إيقاعه ولن نعود ثانية إلى الوراء،لنجد لذة في هذا الإيقاع ،فقد تطور بنا الزمن وخلقنا خلقا جديدا ،لا يأبه في الأدب شعرا ونثرا بحسن جرسه وجمال موقعه في الأسماع "[2]

وهذا الدكتور أحمد الشايب يصف الجاحظ قائلا : وأول ما يتراءى للقارئ خلط الجاحظ بين مسائل النقد والبلاغة ، على فروق حتى ساقهما المؤرخون مساقا واحدا فيما بعد، وعدوا الجاحظ بذلك مؤسس البلاغة العربية... وأوضح الفروق بين النقد والبلاغة أن وظيفتهما هذه إيجابية سابقة تقوم في الأكثر على الأسلوب فترسم لنا طرق التعبير عما في نفوسنا من المعاني والموضوعات.

[1] – د/ شوقي ضيف ،في التراث والشعر واللغة ،مرجع سبق ذكره، ص75.

[2] – المرجع السابق ، ص76

ولكن النقد الأدبي يفرض أن النص قد قيل فعلا وانتهى منه صاحبه، ثم يبدأ عمله، فيعرض علينا مقاييسه الفنية، لنحكم بموجبها على قيمة هذا النص ودرجته، من جهة اللفظ والمعنى جميعا.

فأما أبو عثمان (الجاحظ) فلم نجد له شيئا ذا خطر في هذين العلمين ، إذ كان أكثر ما ذكره من مسائلهما رواية ونقلا عن سواه من العلماء ؛ بشر بن المعتمر و ثمامة بن أشرس وسهل بن هارون وإبراهيم النظام...وحتى الأصمعي وأبو عبيدة كل أولئك وغيرهم، ينقل لنا الجاحظ آراءهم في البلاغة والنقد، ثم يتوارى خلفهم فلا نكاد نراه!

ونسأل أبا عثمان بعد هذه الأصول النقدية والبلاغية التي رواها أو التي توحي بها آثاره. فإذا بها شيء تافه أمام شهرته البيانية، وأمام ما كان معروفا منها لليونان إذ ذاك.. وهو **تافه** من الناحية الموضوعية والشكلية جميعا.

أما أولا فلأن أكثرها متصل بفن الخطابة، وقلما نجد شيئا منها يتصل بالفنون البيانية الأخرى، من شعر وكتابة وجدل ومناظرة.

وأما ثانيا فلأن الجاحظ لم يلم الماما كافيا بأصول الفن الخطابي ، وكل ما ذكره قائم على الكلمات والجمل.[1]

وعن أخطاء الجاحظ وتناقضاته؛ يقول الجاحظ في الجزء الأول من الحيوان ص37 (وفضيلة الشعر مقصورة على العرب وعلى من تكلم بلسان العرب، والشعر لا يستطاع أن يترجم ولا يجوز عليه النقل ، ومتى حول تقطع نظمه، وبطل وزنه ، وذهب حسنه، وسقط موضع التعجب منه) ثم يقول في الجزء الثالث من البيان والتبيين ص14

[1] أحمد الشايب ناقدا ، ص134

(ولليونان فلسفة وصناعة ومنطق، وكان صاحب المنطق نفسه . يعني أرسطو . بكئ اللسان غير موصوف بالبيان ، مع علمه بتمييز الكلام ، وتفصيله وخصائصه)

فيرد الشايب قائلا: فمن قال أن الشعر وقف على العرب ومن تكلم بلسانهم ؟ وهل معنى ذلك أن الشعر ميزة لغوية لا شعبية ، ترى سبب ذلك جهل الجاحظ بطبائع النفس البشرية؟ أم عدم ترجمة الشعر اليوناني إلى العربية مثلا في عصره؟ وهل ترجم أفكان يروقه؟ ويؤمن باستقامة الترجمة ؟ والحال أن رأيه في الترجمة عامة لا يسر المترجمين. وأما رأيه في ترجمة الشعر خاصة فقد سمعناه.

وإذا ابو عثمان قد ظهر وكل شيء مبتور من فلسفة اليونان ومنطقهم فهل معنى ذلك أن ليس لليونان آداب؟ وأن أرسطو على علمه باللغة يعوزه فن البلاغة؟ فلم يكن ليحسن الأداء والبيان؟ [1]

ولم يكتف الشايب في نقد الجاحظ فحسب ، بل تجاوزه إلى تلاميذه المعاصرين قائلا: إن أسلوب الجاحظ على قيمته الفنية والتاريخية لا يمكن أن يبقى كما هو مقالا للكتابة العصرية الخالدة، لما يثقله من طول المقدمات والمبالغة في التكرار.. لأن لكل زمن أسلوبه الذي يلائم طرائق تفكيره وذوقه العام، وملابسات حياته.

على أن الذين تتلمذوا للجاحظ من المعاصرين لم يفنوا فيه ولم يكن من المعقول عنهم ولا المقبول منهم أن يكونوا صورة مكررة لأستاذهم في الكتابة والتأليف...

فالجاحظ يتزعم في عصره قوة التجديد في سماحة الأسلوب وبراعة التصوير وغزارة المعاني، وهو في عصرنا مادة خصبة للكتاب، دون أن يكون نموذجا لكاتب.[1]

[1] المرجع السابق، ص143

المبحث الثالث: الموازنة بين الرأيين بين آراء المعاصرين في قضايا الجاحظ

العصر الحديث،وهو ما يسمى بعصر النهضة والازدهار،وللأدب على وجه الخصوص ،فقد شهدت الساحة الأدبية نهوضا بالغ الأثر، وإثر ذلك ظهر نقاد في خضم هذا الأدب، كي يقوّموا الأدب حتى يضاف إلى مصاف الآداب العالمية.

ولم يكتف النقاد في العصر الحديث بتقييم الأعمال الأدبية للأدباء فحسب،بل نظروا إلى الوراء ،وبحثوا عن الخلافات التي ثارها الأوائل من الأدباء والنقاد، تلك القضايا الشائكة المتمثلة في قضية التفضيل بين الشعراء القدامى المحدثين، أيضا قضية اللفظ والمعنى وأيهما له فضل السبق والريادة في إظهار حسن العمل الأدبي، أيضا تناولهم لقضية السرقات الشعرية وغيرها من القضايا التي ما فتئوا في الخوض فيها.

لذلك نجد النقاد المحدثين صاروا على منوال النقاد القدماء، لكن نظرة الغالبية العظمى من النقاد . كما ذكرت . نهجوا نهج السابقين.

والجاحظ . أيضا . كغيره من العلماء والنقاد الذين لهم آراؤهم واتجاهاتهم النقدية.

ولقد أعجبت أفكاره ونظرياته كثير من العلماء المحدثين وأشادوا بها، بل جعلوها بلسما بها يصلوا إلى كثير من مآربهم في فهم كثير من القضايا الأدبية التي تنتاب طريقهم ،إذ يجدوا ذلك موضحا أمامهم عن طريق الجاحظ ،فلذلك لم تكن الخصومة حوله بائنة كما هو حال بعض النقاد الآخرين ،كقدامة بن جعفر وغيره، وذلك لما جاء بنظرية تقنين الأدب والشعر على وجه الخصوص ،إذ لم يسلم من نقد أقرانه له، بل حتى من المحدثين المعاصرين،وليس كعبد القاهر الجرجاني كما في نظريته المسماة بـ"نظرية

[1]– نفسه، 150

النظم" التي يرى فيها أن حسن الكلام وجودته،نابعة فقط من خلال النظم ، وأن القرآن الكريم معجز بنظمه.

حتى أن من ينقد الجاحظ ويرى رأيا آخر مخالفا له أيضا لم يكن كثيرا بل جزء من الأدباء النقاد الذين يحاولون التملص من الروتين القديم والنهج الأدبي السائد.

إذ تجدهم يحاولون أن يقلدوا الغرب،وأن يتحرروا من قيود الوزن والقافية.

من خلال ما سبق نتوصل إلى خلاصة الرأيين السابقين، فمن حيث الكم يرجح أصحاب الرأي الأول ،أولئك الذين أيدوا آراء الجاحظ في قضاياه التي عرضها ، وأبدوا إعجابهم بها،وهم أكثر النقاد.

أما أصحاب الرأي الثاني وهم يمثلون الأقلية التي تؤمن بالثورة على القديم ،الذين يدعون للشاعر الحرية المطلقة وإطلاق العنان له، أو ممن لا يرى الإبداع فيما طرحه الجاحظ، بل عده ناقلا ممن سبقه.

الفصل الثاني : آراء المعاصرين في قضايا ابن قتيبة وتفنيدها

لم يعد ابن قتيبة واحد ممن برزوا في مجال الكتابة فحسب فقد كان .كما يقولون . الجاحظ خطيب المعتزلة وابن قتيبة خطيب أهل السنة ،وقد كان عصرهم مما فيه طور المتكلمين ،فما من خطيب أو أديب إلاّ وكان متكلما ،له نظرته الخاصة وحكمه الخاصة حسب ما تقتضيه فلسفته للأشياء التي تمر به.

لذا فقد كان العلامة له أيضا بعض من الأفكار التي تبناها والتي نقض فيها أفكار المعتزلة، الذين بقيادة الجاحظ،وهذا لا ينفي أن يكون ابن قتيبة قد تتلمذ على يد الجاحظ.

وقد انبرى وذاع سيطه وعرفته المنابر والمحابر بأفكاره وآرائه الساطعة التي تواجه الرأي أو الفكر المخالف.

حتى في آرائه النقدية نجد أن من العلماء المعاصرين من أشاد بها ،وأن بعضهم من نقدها.

المبحث الأول :آراء المؤيدين لقضايا ابن قتيبة وتفنيدها

يقول الأستاذ السيّد أحمد صقر عن كتاب ابن قتيبة الشعر والشعراء (هذا كتاب من أرفع كتب الأدب قدرا، وأنبهها ذكرا،وأقدمها نشرا)[1]

وممن يؤيد ابن قتيبة في نظرته الاعتدالية للشعر والشعراء التي يقول فيها (ولم يقتصر الله العلم الشعر والبلاغة على قوم دون قوم) أشاد بهذا المعنى، الشاعر العراقي المعاصر؛ معروف الرصافي بقوله(والشعر لا يختص ببلد دون بلد،ولا بشخص دون شخص،ولا بأمة دون أمة،إنما هو في كل أمة مظهر من مظاهرها في الثقافة العامة المشتملة على ما تلك الأمة من أخلاق وعادات وتاريخ ودين وأساطير وخرافات،وقد يجوز ن يقوم في بلد متأخر في الثقافة شاعر يبد الشعراء الناشئين في بلد متقدم في الثقافة ،إلاّ من مهذباته ليس إلاّ)[2]

ومعالجة د/طه حسين لقضايا ابن قتيبة نجد أنه نظر إليها بصورة تكاد تختلف عن نظرة أقرانه، ولهذا حظي بترجيح كفته عليهم.

فنجد في رأيه تجاه القضايا التي تحدث فيها ابن قتيبة لا يخرج عما ذهب إليه القدماء، أي أن القدم والحداثة ليسا إلاّ دليلا تاريخيا ،والجديد اليوم يصبح قديما في الغد، وأن الخلاف بين القديم والحديث أصل من أصول الحياة اليوم يصبح قديما في الغد،وأن يشتد الجهاد بين أولئك وهؤلاء حتى يتم أنصار الجديد فيصبح هذا الجديد قديما، ويظهر جديد آخر يحاربه.

---

[1] – ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، مرجع سبق ذكره، ص7

[2] – د/ أحمد مطلوب ، دراسات بلاغية ونقدية ،مرجع سبق ذكره، ص283

كما يرى أن هذا الاختلاف بين لونين من ألوان الحياة العقلية والشعورية،أحدهما قد يضمحل وينمحي ،والآخر قد يظهر ويقوى،ويبدوا أنّ هذا التفكير الذي تبناه الدكتور/طه حسين، وبفعل النقد القديم من ناحية،واتفاقه مع النظرة العقلية السلمية من ناحية أخرى،كانت السيادة المطلقة مرجحة كفته على الآراء التي تتشبث بالقديم لقدمه فتضفي عليه صفة القداسة والثبات والمستمر.[1]

ومن المعجبين بابن قتيبة وبأفكاره **الدكتور عيسى العاكوب**،ومن ذلك يفسره جهده قائلا "يمثل ابن قتيبة شخصية مؤرخ الأدب والناقد الأدبي في وقت واحد ،وقد جاءت فكرته النقدية في مقدمة كتابه الشعر والشعراء ،ليبيّن أقسام الشعر الرئيسية ،والأسس الجمالية التي تختار على أساسها الأشعار .ويمثل الكثير النقدي عنده والعصر الذي سبقه، ومن هذه الوجهة جاء تركيزه على موضوعية النقد والأحكام النقدية ،وتحديده مجموعة من الأسس الجمالية الموضوعية التي ينبغي أن تحاكم الأشعار على أساسها. "[2]

ويحدثنا الدكتور شوقي ضيق عن أسلوب ونهج ابن قتيبة في التأليف "أسلوب يمتاز بوضوحه واصطفاء ألفاظه والمزاوجة بينها على طريقة الجاحظ أحيانا،وأحيانا يسترسل دون محاولة الازدواج،ولكن مع العناية باختيار الكلمات والملاءمة بينها بحيث لا تجد فيها أي نشاز ولا أي اضطراب أو انحراف،فقد كانت اللغة مرنة في يده وكان لا يتأتى عليه أي لفظ، ولا تستعصي عليه أي كلمة.

---

[1] – طه حسين، حديث الأربعاء ، مرجع سبق ذكره

[2] – د/ عيسى علي العاكوب، التفكير النقدي عند العرب ، دار الفكر ، دمشق، ط7، 2010م، ص177

وبهذا الأسلوب المتناسق وما يجري فيه من استواء صنف كتاب عيون الأخبار جميعه [1]"

ومن المعجبين بابن قتيبة **الدكتور/ عاطف جودة نصر**، حيث أشاد بتقسيم ابن قتيبة للشعر على أربعة أضرب ، يقول هذا تقسيم معياري تحكمه معيارية الجودة والرداءة ...وهذا كله مؤذن بأن المعاني تتفاوت وأنها ليست كما زعم الجاحظ شركة بين الناس.[2]

ويضيف **الدكتور / إحسان عباس** : في قول ابن قتيبة المتقدم (ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخر منهم عين الاحتقار لتأخره...) .: يتفق الناقدان . ابن قتيبة والجاحظ . في هذا الموقف، وابن قتيبة أبين في التعبير عنه وأكثر إسهابا، ثم يفترقان في مواقف أخرى، لأن الاعتدال عند ابن قتيبة قد بسط ظله على نظرته عامة.

ومن أبين الفروق بينهما اختلافهما في النظر إلى مشكلة اللفظ والمعنى، فبينا انحاز الجاحظ إلى جانب اللفظ، ذهب ابن قتيبة مذهب التسوية.[3]

وعن قضية اللفظ والمعنى التي تطرق لها ابن قتيبة، يبسطها بالتحليل والنقد الدكتور إحسان قائلا: لهذه القضية ركنان (لفظ ومعنى) ومميزان (الجودة . الرداءة) ، بعد أن قسمها إلى أربعة أضرب؛ إنما فعل ذلك ليكون أبعد عن الحدة التي قد تستشف من قولنا (جيد ورديء)، وآثرنا إلزامه بلفظين لكي لا تضطرب عليه القسمة المنطقية.

---

[1] – د/ شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العباسي، مرجع سبق ذكره، ص619.

[2] – د/ عاطف جودة نصر ، النص الشعري ومشكلات التفسير ، مرجع سبق ذكره، ص75

[3]– د/ إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الثقافة – بيروت، ط4، 1992م، ص107

فالمسألة إذن مسألة صلة بين المعنى واللفظ، وعلاقة الجودة في كليهما معا هي المفضلة، وهذا يعني أن المعاني نفسها تتفاوت، وأنها ليست كما زعم الجاحظ (مطروحة في الطريق)، ويستشف من أمثلة ابن قتيبة أن المعنى عنده قد يعني الصورة الشعرية مثلما يعني الحكمة، ولكن هذه الأمثلة نفسها تشير إلى أنه يستمد حكمه من بيت واحد أو بيتين أو ثلاثة في الأكثر.[1]

وعن ثنائية الطبع والتكلف التي تناولهما ابن قتيبة بالتفسير والتمثيل، يقول إحسان ؛ قد خفي على الدارسين المحدثين أن قلة (المصطلح النقدي) لدى ابن قتيبة جعلته يستعمل هاتين اللفظتين بمدلولات مختلفة. فالتكلف حيث يكون وصفا للشاعر مختلف عن (التكلف) حين يكون وصفا للشعر، تقول شاعر (متكلف)وتعني ما نعنيه حين نقول إنه (صانع) ولهذا يقول ابن قتيبة: (فالمتكلف من الشعراء هو الذي قوّم شعره بالثقافات ونقحه بطول التفتيش وأعاده فيه النظر بعد النظر كهير والحطيئة...) ولا نظن أن ابن قتيبة يسترذل شعر زهير والحطيئة أو يراهما دون من يسميهم الشعراء المطبوعين ، وتقول شاعر مطبوع وتعني في ذلك ما نعنيه سمح بالشعر واقتدر على شعره رونق الطبع ووشي الغريزة وإذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحر) وهذا يعنى أن الطبع يشمل القول على البداهة مثلما يشمل (الصنعة الخفية) التي لا تظهر على وجه الأثر الفني . فإذا قلت شعر متكلَّف ، عنيت ظهور (التفكر وشدة العناء ورشح الجبين وكثرة الضرورات وحذف ما بالمعاني إليه حاجة وزيادة ما بالمعاني غنى عنه) وهذا يقابل ما نسميه(رداءة الصنعة) وليس كذلك شعر المنقحين أمثال زهير والحطيئة، على أن

[1] د/ إحسان عباس، المرجع السابق، ص108

بعض المتكلف من الشعر قد يكون جيدا محكما . في رأي ابن قتيبة . ولكن لا أظنه يعني: ما تكثر فيه الضرورات وما فيه حذف للضروري وإثبات لما يمكن الاستغناء عنه، وكيف يكون في هذا الجيد المحكم، وهو مخل بأبسط مقتضيات البلاغة.[1]

ومن مميزات النقد عند ابن قتيبة؛ فيقول إحسان؛ على الرغم فقر المصطلح النقدي لدى ابن قتيبة فقد تمرس في مقدمته بأكبر المشكلات النقدية التي سيكثر حولها الحديث من بعده، فتحدث عن الشعر من خلال قضية اللفظ والمعنى ، والتكلف وجودة الصنعة، وعن ضرورة التناسب بين الموضوعات في القصيدة الواحدة وتلاحقها في سياق، واعتمادها على وحدة معنوية تقيم التلاحم والقران بين أبياتها، وعن أسبابخارجة التي تعتري العلاقات الاعرابية والنغمات الموسيقية والقوافي، وألمح إلى أهمية التأثير في نفسيات الجماهير التناسب والمشاركة العاطفية، وتحدث عن الشاعر متكلفا ومطبوعا، وعن المؤثرات والحوافز التي تفعل فعلها في نفسه، وعن علاقة الشاعرية بالأزمنة والأمكنة وعن أوائل النقاد الذين لم يتهيبوا الوقوف عند القضايا النقدية الكبرى، كما كان من أبرزهم التفاتا إلى العوامل النفسية والمبنى

الفني الكلي؛ ووضع ان قتيبة استنتاجات تدل على خاطر ذوقي نقدي أصل، كانت كفاء بنقل النقد إلى مرحلة جديدة.[2]

[1] – د/ إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، مرجع سبق ذكره، ص110–111

[2]– د/ إحسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، مرجع سبق ذكره، ص115

المبحث الثاني : آراء المعارضين لقضايا ابن قتيبة وتفنيدها

لقد انبرى في عصرنا الحاضر علماء نبغوا في مجال الأدب والنقد، وكانت لهم أفكارهم وآراؤهم ،بعضها يوافق المنهج القديم والأخرى تخالفها من حيث النظرة والثقب، وممن لهم نظريات فريدة **الأستاذ عبد العاطي الزياني** في كتابه التراث النقدي والتأويل؛ ظواهر وقضايا، يقول "أما ابن قتيبة فيرى أن اللفظ يشتمل إما على فكرة ،أو على معنى خلقي ،وكان هذا معياره في نظرته للشعر وهي . حسب الكاتب . نظرة ضيقة لكونها لا تفيد النقد وقضاياه ،بل أن في تصوره ترجح في التعاطي مع القضية ،فتارة يناصر اللفظ وأخرى يناصر المعنى ،وأحيانا يبدي طرفا للثنائية منفصلين "[1]

وللدكتور محمد مندور آراء متباينة عن ابن قتيبة بين التأييد والتعارض نفصلها حسب ورودها في كتابه النقد المنهجي، ونقف على فصل القول عنده.

فيرى (أن ابن قتيبة كان رجلا مستقل الرأي غير خاضع لتقاليد العرب الأدبية ولا مؤمن بأوهامهم ولا مطمئن إلى المعتقدات الأدبية التي كانت منتشرة في عصره)[2]

وفهو يرى أن ثورة ابن قتيبة على المقلدين من أنصار القديم ؛إنما كانت ثورة صادرة عن نظر فلسفي أكثر من صدورها عن حكم استقراه من طبيعة الشعر القديم والحديث، ونسبة الجودة في كل منها ، أو قربها من مثل أعلى في الشعر من قوله (ولم أسلك

[1] – حسن ملواني ، مقال منشور، القدس العربي– مجلة علمية محكمة، العدد 6036، أكتوبر /شوال، 2008م 1429هـ

[2]– د. محمد مندور، النقد المنهجي، ص23

فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختار له...ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن)[1]

هذه النظرة المجردة إن صحت أمام العقل فهي لا تصح أمام الواقع كما يبصرنا به تاريخ الأدب العربي، وإنما كانت تصح لو أن الشعر العربي استطاع أن يفلت من تأثير الشعر القديم.

وقد يكون في طبيعة الشعر ذاته ما يفسر هذه الحقيقة التي لا تقتصر على الشعر العربي، بل تصدق على أشعار الأمم كافة، فمن الثابت لدى معظم النقاد أن خير أشعار الشعوب هو ما قالته أيام بداوتها الأولى، حتى ليخيل إلينا أن الشعر الجيد لا تستطيعه إلا النفوس الوحشية الغفل القوية، وإذا استطاعه أحد من المتحضرين فهو في الغالب رجل أقرب إلى الفطرة منه إلى المدنية العقلية المعقدة، ولقد يكو في عنف الرجل البدائي وقصر مدركاته في معطيات الحس وصوره ما يفسر تلك الظاهرة.

وفي تاريخ الأدب العربي كما قلنا ما يزيد من رجحان كفة قديم الشعر على حديثه، وهو صدور القديم عن طبع وحياة وصدور أغلب الحديث عن تقليد وفن.

ومن العجيب أن ابن قتيبة لم يفطن إلى هذه الحقيقة ولم يلاحظها في شعر معاصريه أو سابقيه بقليل كشعر مسلم وأبي تمام ومن نحا نحوهما، ويبلغ العجب غايته عندما نراه يحظر على المحدثين أي يخرجوا عن مذهب المتقدمين فيقف على منزل عامر أو يبكي عند مشيد البنيان؛ لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافي، أو يرحل على حمار أو بغل أو يصفها، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير.

[1] د. محمد مندور ، النقد المنهجي، ص24

ويرى محمد مندور أيضا أن ابن قتيبة لم يأخذ بفكرة المكان، بل ولا بفكرة الزمان؛ لأنه وإن كان قد ابتدأ بالجاهليين لينتهي بالإسلاميين فإنه لم يرتبهم في كل عهد وفقا لما كان معروفا عند العرب . إن حقا وإن باطلا في ذلك الوقت . عن أسبقية بعضهم لبعض . ولو أنه فعل لابتدأ بالمهلهل الذي يقول عنه ابن سلام (أنه أول من قصد القصائد وذكر الوقائع).

يتساءل محمد مندور؛ إذا كان ابن قتيبة لم يظهر أصالة خاصة في التاريخ الأدبي ، فهل كان له شيء من الفضل في السير بالنقد الأدبي إلى الأمام خطوة تدنيه مما صار إليه عند رجل كالآمدي من نضوج؟

الروح العلمية والذوق الأدبي : الواقع أن ابن قتيبة عنده ناحيتان ؛

ناحية الروح العلمية التي صدر عنها وهذه روح صائبة في دعوتها إلى تحكيم النظر الشخصي والاستقلال بالرأي وتقديم الأشياء في ذاتها على نحو رأينا هذا فإن الناقد يتحدث عن الشعر القديم والمحدث ، ويرفض أن يقدم القديم لقدمه ويرذل الحديث لحداثته، ثم ناحية الذوق الأدبي ونقد الشعر هو أضعف نواحيه.

والغريب أننا نرى ابن قتيبة حتى في اتجاهه النقدي أكثر توفيقا في النزعة منه في النقد اته، وفي المذهب الفني أكثر منه في الذوق الذي يعلمه في النصوص، ولعل هذا لغلب تفكيره على حسه الأدبي، فهو موجها خير منه ناقدا.

ومما يلفت إليه النظر أن ابن قتيبة لم ينقد النصوص نقدا موضوعيا تحليليا، وإنما أورد أخبارا وقصصا عن الشعراء في مقدمته حيث نجد بعض المسائل الأدبية العامة وبعض المقاييس في الحكم على الشعر.[1]

والعيب الواضح في نظرات ابن قتيبة يرجع إلى منهجه العقلي فهو تقريري النزعة في كل شيء، وهو أحد تفكيرا منه إحساسا أدبيا وهو لا ينظر إلى الظواهر نظرة تاريخية، بل نظرة منطقية تتناول الأشياء كما تعرض في آخر مراحلها.

وإن اتجاهه التقريري أشد وضوحا في تقاسيمه للشعر.[2]

ثم يضيف مندور؛ نرى ابن قتيبة كعادته يضع المبدأ ثم لا يحسن النظر ولا الذوق، كما رأيناه يقسم الشعر حسب اللفظ والمعنى ، ثم لا يجيد التطبيق ولا يصدق في الحسن فقد أورد حكما صحيحا وشرطا يجب أن يتوفر في الشعر الجيد المطبوع وهو "أن لا نحس بما نزل بصاحبه من طول التفكير وشدة العناء ورشح الجبين" إذ من المسلم به عند ذوي البصر بالشعر ، بل والأدب أن الشاعر أو الكاتب إذا نجح في جهده وواتاه الطبع جاء ما يكتب ولا أثر فيه لشدة العناء ورشح الجبين.

وإنما نلمح ذلك عن بعد دفين في جودة السبك والصلات المحكمة بين الجمل وبين الصور والإحساسات.

[1]– د. محمد مندور، النقد المنهجي، ص31

[2]– المرجع السابق، 32

الجهد في الشعر الجيد ضوء داخلي رقيق ينير ولكنه لا يعشى الأبصار والجهد إذا ظهر في (كثرة الضرورات وحذف ما بالمعاني حاجة إليه وزيادة ما بالمعاني غنى) لم يكن تكلفا وإنما كان قصورا أو عجزا عن السيطرة على المادة.

ونحن بعد لا نرى إسرافا في اللفظ ولا ضعفا في الصياغة في قول الفرزدق:

أوليت العراق ورافديه # فزاريا أخ يد القميص

فالرافدين يزيدان العراق جمالا وشعرا ونبلا، وليس من الحشو في شيء، وإنما هو الفرزدق الشاعر الدقيق الخبير بطبيعة الشعر قد عرف كيف يرفع من قدر العراق ويضفى عليه جلال الشعر بهذين (الرافدين) ، وعجز ابن قتيبة عن إدراك ذلك فحسبه حشوا، وهي بعد ظاهرة يعرفها أجود الشعراء وأخلده، فالشعر لا يقصد إلى مجرد تحديد المعنى حتى يقال إن الرافدين جزء من العراق أو هي العراق فوجب حذفهم لأنهما لا يضفيان إلى المعنى تحديدا.[1]

وإنما الشعر نشد روح وتحريك خيال وبعث إحساس، وكم فيه من صيغ جميلة لا تسعى إلى غير هذا "كغربة النوى"

وأما قوله (أخذ يد القميص) فكناية جميلة لم يفطن إلى روعتها ابن قتيبة. وهل أدل على الخيانة من أن نكني عنها بيد القميص يقطر صديدا؟ وهل أقوى من هذا عبارة؟ ومع ذا يقول ابن قتيبة إنها حشو.[2]

[1] د. محمد مندور، مرجع سبق ذكره، ص41

[2] – د. محمد مندور ، المرجع السابق، ص42

وهكذا يجمل لنا محمد مندور حكمه العام على ابن قتيبة؛ أن ابن قتيبة هو رجل تفكيره خير من ذوقه ونزعته خير من عمله، دعا إلى تحكيم الرأي الشخصي فأصاب، وعرف الشعر المتكلف في أحد المواضع؛ بأنه ما خلا نسجه من الوحدة فأصاب، وعرف المطبوع؛ بأنه ما ينبئ صدره عن عجزه فأصاب، وحاول أن يقسم الشعر تبعا لجودة ألفاظه ومعانيه فتخبط في الحكم والذوق، وقسمه إلى مطبوع ومتكلف فخلط بين الارتجال والطبع، وبين التثقيف والتكلف، وحاول أن يورد عن غيره بعض المقاييس، فلم يتبصر ولم يعمل حسه ولا عقله ليضعها وضعها الحقيقي.[1]

ومع ذلك يبقى له فضل وقوفه في سبيل طغيان منطق اليونان على أدب العرب، وفضل التخلص من التعصب للقديم أو الحديث لحداثته، وذلك رغم أنه لم يستطع أن يقيم محل ما رفضه أسسا صحيحة أو نظرية متماسكة.

وابن قتيبة بعد كل هذا ليس ناقدا ، وإنما الناقد هو الرجل الذي يتناول النصوص يدرسها ويميز بين أساليبها كما فعل الآمدي ، والذي أصبح النقد بفضله نقدا منهجيا ولم يعد مجرد خواطر كما كان من قبل، ولا أحكاما تستقى من جزئية ثم تعمم.[2]

ويضيف الدكتور عبد القادر رأيا يضفي على رأي ابن قتيبة بحيث لا يرى للحديث مقاما عنده ،حيث رأى <أنه من الغيب أن نقف إلى جانب الجديد المجرد جدته، وإغفال

[1]– د. محمد مندور، نفسه، ص48

[2]– نفسه، 48

كل ما فيه من نقص أو انحراف أو إغماط القديم حقه لمجرد أنه قديم، والتنكر لكل عناصره وأصوله التي ما زالت صالحة للتعبير عن حياته عصرنا).[1]

ويحلل الدكتور /محمد على أبو حمدة قول ابن قتيبة (والشعراء أيضا في الطبع مختلفون : منهم من يسهل عليه المديح ويعسر عليه الهجاء ،ومنهم نم يتيسر له المراثي ويتعذر الغزل ،قيل للعجاج...) في هذه النصوص أشياء مختلفة يجب للحكم عليها أن تفضل بينها منها:1- صفة الشعر المطبوع 2- خلط بين الطبع والارتجال 3- ذهاب بعض الشعراء بضروب خاصة من الشعر وفقا لطباعهم.

أما عن "صفة الشعر المطبوع" فالظاهر أن ابن قتيبة أصاب التعريف كعادته،ثم اخطأ التطبيق والاختيار.[2]

ثم يقول الدكتور في موضوع ثان (ونحن نرى ابن قتيبة كعادته يضع المبدأ ثم لا يحسن النظر ولا الذوق،وكما رأيناه قسم الشعر حسب اللفظ والمعنى ،ثم لا يجيد التطبيق ،ولا يصدق في الحسّ ،فقد أورد حكما صحيحا وشرطا يجب أن يتوافر في الشعر الجيد المطبوع ،وهو إلاّ يحس بما نزل بصاحبه من طول التفكر وشدة العناء ورشح الجبين ،وبذلك حينما يورد أبيات الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع من المال إلاّ مسحة أو مجلف)[3]

---

[1] – عدنان قاسم ، مرجع سبق ذكره، ص18

[2] – د/ محمد علي أبو حمدة ، في العبور الحضاري لكتاب النقد المنهجي عند العرب ، دار عمان، عمان،ى ط1،2009م، ص160.

[3] – المرجع السابق، ص150

على ما مرّ من مفهوم ابن قتيبة لكلمتي اللفظ والمعنى ،يقول الدكتور محمد زكي العشماوي(أن ناقدنا وقع في ما وقع فيه الجاحظ من خطأ في تصوره للشعر وارتباط مفهومه لديه بالنظرة المنطقية للغة ،كما شارك الجاحظ أيضا في فكرة استقلال المعنى عن اللفظ واستقلال اللفظ عن المعنى ،ولكنه لم يكتف بهذا بل أضاف إلى أخطاء الجاحظ أخرى خطيرة نذكر منها ما يأتي:-

أولا: أن الشعر الذي يخلو من مضمون أخلاقي أو فلسفي أو طرفي غريبة أو تصورات نادرة لا يعتبر شعرا ذا قيمة ،وبهذا يعلق جودة الشعر على مضمونه مستقلا عن الصياغة والتصوير.

ثانيا: جعل للألفاظ دلالات مفردات أو مستقلة ،ولم يفطن إلى أن الألفاظ في الشعر ليست أنغاما أو مخارج ومقاطع فحسب ،وإنما هي تتداخل وتتجاوز بإشعاعاتها حدودها العادية ،وتكسب كل كلمة من التي تليها معاني جديدة ما كانت لتكون لولا السياق الذي جمعها ،والبناء الذي اتنظمها ،وأن المفارقات في المعنى لا تكون إلاّ لمفارقات في البناء ،وفي سياق الألفاظ وتداخلها واتئلافها.

ثالثا: المعنى في الشعر عنده مجرد المحتوي المنطقي للكم بدليل تفسده لمعنى أبيات عقبة بن في نهاية كعب بن زهير التي مرت ،فقد لمعنى أبيات هذه الأبيات في إعطاء المضمون الفكري لها ،ومن هنا جاء مفهوم للمعنى محدودا وقاصرا .

فليست معنى اللفظة في الشعر مجرد الموضوع المقابل لها ،بل يشمل جميع الارتباطات التي تبعثها اللفظة مفردة ومجتمعة مع غيرها .)[1]

أشير بأن ابن قتيبة على الرغم من وقوعه في الخطأ الذي حذر منه غيره إلاّ أنه عاد إلى الخطأ ذاته ،إلاّ أنه يعد أوضح أسلوبا وأن نهجه يكاد يسهل على ناظر من نهجه سابقه وأستاذه الجاحظ.

ومع ذلك فلا مناص من الذلل لأن للمجتهد نصيب وإن أخطأ ،فكيف إذا أصاب، وما أراه إلاّ كذلك في أغلب آرائه.

Journal of the Higher Institute for Specific Studies - Giza

[1] – د/ محمد زكي العشماوي ،قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، مرجع سبق ذكره، ص382–383

المبحث الثالث: الموازنة بين الرأيين

لم يكن هناك اختلاف بائن بين آراء المؤيدين وآراء المعارضين لقضايا ابن قتيبة ، فمثلا إذا أخذنا بآراء المؤيدين ووضعناها في ميزان ،نجد أن مواقفهم قد لا تزيد على الثناء ، أو إجراء تعقيبات على بعض الملاحظات التي أشاد بها ابن قتيبة ،فمثلا إذا أخذت بقول **الدكتورة /هند** في حديثها عن قضية السرقات الشعرية ،وكيف عالجها ابن قتيبة ،تجدها في نهاية حديثها عنه قائلة (قال بفكرة أنها السرقة المحمودة ...وبذلك يكون قد أخرج هذه القضية من دائرة الاتهام التي وضعت فيها).

كذا مثلا عندما تنظر إلى رأى **الدكتور /شوقي ضيف** على ابن قتيبة تجده ثناء ووصفا لبعض محاسنه التي فاق بها الجاحظ ،فيقول عن أسلوبه "بهذا الأسلوب المتناسق وما يجري فيه من استواء صنف كتابه عيون الأخبار جميعه، أي أن أسلوب ابن قتيبة أسلوب يمتاز بالوضوح واصطفاء الألفاظ أحيانا والاسترسال أحيانا أخرى."

ويعتبره **الدكتور عيسى العاكوب**، مصوبا لكثير من صور النقد الخاطئ الذي شاع في عصره والعصر الذي سبقه ،أي أنّ ابن قتيبة وضع أسسا عليها تحاكم الأشعار ،وهذا تفكير سليم يتصف بالموضوعية أكثر .

أما إذا نظرنا إلى الجانب الآخر ،وهم **المعارضون** لابن قتيبة فنجد أن معارضتهم ليست في شخصية ابن قتيبة ،وبل ولا معارضة كل أفكار وآرائه النقدية ،إنما مجرد بعضها ، ولا يمكن أن يسلم كل منا عن الخطإ، إذ الخطأ من دأب الإنسان ،فمن هذا الجانب وجد بعض علمائنا في هذا العصر بعض الثغرات في أقوال ابن قتيبة في بعض قضاياه النقدية التي عرضها في الميزان النقدي.

أولى القضية التي أثارت الاهتمام والخوض هي قضية اللفظ والمعنى عنده تدرك إذا تمعنت في عرضه للقضية ،أن موقفه متردد بين تفضيل الألفاظ تارة والمعاني أخرى.

لذا يقول **الأستاذ عبد العاطي الزياني** "أن اشتمال ابن قتيبة اللفظ على الفكرة مرة وعلى معنى خلقي مرة أخرى،هذه نظرة ضيقة؛لكونها لا تفيد النقد وقضاياه".

ويعيب **الدكتور محمد مندور** نظرات ابن قتيبة النقدية بأنها نظرات عقلية،فهو لا ينظر إلى الظواهر نظرة تاريخية،بل نظرة منطقية.

وأخيرا يحصي **الدكتور زكي العشماوي** مجموعة الأخطاء التي وقع فيها ابن قتيبة منها بنفسه أولا،إلاّ انه لم يتمالك أن وقع فيها ثانية،وهذه الخطاء وقع فيها سابقه الجاحظ.

قائمة المصادر والمراجع

1- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق: ناصر محمدي محمد جاد، شركة القدس للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2013م

2- الشعر والشعراء، ابن قتيبة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، 2003م

3- الحيوان، الجاحظ، دار الجيل، شرح وتحقيق : عبد السلام هارون، 1988م، ج3

4- القضايا النقدية بين الجاحظ وابن قتيبة ، رسالة دكتوراه، محمد عبدالله محمد فضل الله، جامعة أم درمان الإسلامية، 2006م

5- ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د/ عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، ط3، 1973م

6- الرؤية الحضارية والنقدية في أدب طه حسين، د/يوسف نور عوض، مكتبة الأنجلو المصرية ، 1997م

7- قراءة في النص النقدي وأشكاله المختلفة عند الجاحظ، د/ يوسف غيوة، مقال منشور. مجلة اليوم الالكترونية، الاثنين 2002/7/22م

8- نظرية الجاحظ في النقد الأدبي، محمد عبد الغني المصري، دار مجد لاوي ، عمان . الأردن، ط1، 1987

9- خصائص ،التعبير القرآني وسماته البلاغية، د/عبد الرحيم إبراهيم المطعى، ج1، مكتبة وهبة ،القاهرة، ط1، 1992م

10- دراسات في الأدب، محمد بركات حمدي أبو علي، دار وائل ، عمان ،1999م

11- جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، ج2، مكتبة الخانجي ،القاهرة، ط1، 2003م

12- النص الشعري ومشكلات التفسير، د/عاطف جودة نصر، مكتبة لبنان، بيروت ط11996م.

13- التفكير النقدي عند العرب، د/ عيسى علي العاكوب، دار الفكر ، دمشق، ط7، 2010م

14- تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د/ إحسان عباس، دار الثقافة – بيروت، ط4، 1992م

15- القدس العربي، حسن ملواني ، مقال منشور في مجلة علمية محكمة، العدد 6036، أكتوبر /شوال، 2008م 1429هـ

16- النقد المنهجي، د. محمد مندور،

17- في العبور الحضاري لكتاب النقد المنهجي عند العرب، د/ محمد علي أبو حمدة، دار عمان ، عمان،ى ط1، 2009م